

## المقالات

## التربية الوالدية وسيكولوجية الطفل

أ.د. الغالي أحرشواو

aharchaou.rhali@gmail.com

شعبة علم النفس - كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
ظهر المهران، فاس - المغرب

تتلخص الفكرة التي نصبو إلى بسطها في هذه المقالة في أن الطفل بطبيعته وتكوينه يكون دوماً في حاجة إلى الرعاية المعفمة بالتوجيه والإرشاد، وذلك نتيجة صغر سنه ومحدودية تجاربه وسذاجة معارفه. وإذا كانت ممارسة الآباء التربوية تمثل بهذا الخصوص الاستجابة الطبيعية لتلك الحاجة، فإن الممارسة المقصودة هي تلك التي تحكمها مرجعية سيكولوجية تتحدد في النظرية التي يحملها الوالدان عن سيكولوجية الطفل. وهي النظرية التي تتجلى من جهة في مجمل التمثلات التي يكونها هؤلاء عن نمو الطفل وقدراته وحاجاته ورغباته، ومن جهة أخرى في مختلف الأساليب التي يوظفونها في التعامل مع هذا الأخير.

في إطار هذا المنظور السيكولوجي، سنعمل في هذه المقالة على مقارنة إشكالية التربية الوالدية في علاقتها بسيكولوجية الطفل ومحيطه الاجتماعي والثقافي من خلال التفصيل في أربع نقاط أساسية:

### 1. حاجة الطفل إلى الرعاية والإرشاد:

عادة ما تُختصر التربية الوالدية في تعامل الأبوين المباشر مع الطفل، وبالضبط في الممارسات التي تترجم فعلهما التربوي تجاه هذا الأخير. فهي بهذا المعنى تشكل مجمل الأفعال والأقوال الوالدية الهادفة إلى تأطير الطفل وتوجيهه وترويضه بالمعارف والقيم اللازمة لمواجهة الحياة.

والحقيقة أن الطفل الذي يكون بطبيعته وتكوينه في حاجة إلى الرعاية والإرشاد، عادة ما يتفاعل إيجابياً مع تلك الممارسات، بحيث تبقى السلطة هي الأسلوب الذي يؤدي به إلى إدراك واستيعاب ممنوعات ومحظورات التنشئة الاجتماعية. فقد ثبت أن الحرمان - على الرغم من مرارته - يشكل تجربة ضرورية لنمو الطفل، بحيث إن اندماجه في المجتمع يتطلب منه أن يتعلم كيف يتخلى عن إشباع كل رغباته الآنية. فتوعيته بمختلف المنوعات وحرمانه من إشباع كثير من نزواته عادة ما يحافظان على سلامته وراحته ويفتحان الطريق سالكا أمامه للطمانينة والثقة بالنفس (أحرشواو، 1988).

إذن، إذا كان الطفل في حاجة ماسة إلى علاقة قرابة إيجابية مع أبويه لكي ينمو ويتكيف مع محيطه بشكل سليم، وبعيدا عن أي اضطراب، فهذا يعني أن تفاعلاته المنسجمة معهما ومظاهر الاتفاق بدل الاختلاف في ممارستهما التربوية تشكل عناصر ضرورية بهذا الخصوص. فممارسة السلطة الوالدية يجب أن يحكمها منطق الإقناع المصاحب بهامش يترك للطفل حرية الفعل والتصرف والمران ومن ثم الاستفادة من أي خطأ يرتكبه أو يقع فيه.

## 2. مقومات التربية الوالدية:

الراجح أن التربية الوالدية المقصودة لها من المقومات والخصائص ما يجعلها قادرة على أداء رسالتها. فهي عادة ما تنبني على مبادئ تحكمها وعلى أهداف توجهها وعلى محددات تؤطرها، وعلى أساليب تسييرها (Lautrey, 1989؛ Allès-Jardel, 1997؛ أحرشواو، 2009؛ إسماعيل، 1974):

فمن حيث المبادئ، يمكن القول إن الثقة في الطفل وتخليق سلوكياته وفق أساليب تربوية مرنة ومعايير الحياة الاجتماعية المتمثلة في العدل والصدق والاستقامة وتقنيات التفاعل وآداب التواصل مع الآخر، ثم آليات تمثل الذات وبناء الهوية، كلها تمثل المبادئ الأساسية لكل تربية والدية نموذجية.

ومن حيث الأهداف يجب التأكيد على أنه إذا كان الاستقلال الذاتي يمثل الهدف الأسمى لكل تربية والدية، وذلك عبر تأطير الطفل ومساعدته على تدبير نشاطه بمفرده بطريقة متكيفة مع محيطه الاجتماعي والثقافي، فإن غايات أخرى تفرض نفسها بهذا الخصوص يمكن إجمالها في صنفين اثنين:

\* الأول يتعلق بتحقيق التفثيق الشخصي للطفل وذلك من خلال الاستجابة عبر الرعاية والتوجيه والإرشاد لمختلف حاجاته ورغباته وفي مقدمتها:

- تحقيق تكامله الصحي من خلال إشباع رغباته الأولية المتمثلة في الغذاء الصحي والسكن النظيف والعلاج المطلوب ثم الوقاية اللازمة.

- تحقيق تماسكه النمائي واستقراره النفسي وذلك بضبط سلوكه وإشباع رغباته العاطفية وتحسيسه بالقبول والرضا ثم إشعاره بالأمن والطمأنينة.

- حمايته من الأضرار الخارجية، ومن ثم وقايتها من الصدمات القوية الآتية من المحيط الخارجي وتعليمه إستراتيجيات التواصل مع مكونات هذا المحيط والحقيقة أن إحساس الطفل بالأمن الذي تسعى إليه كل تربية والدية مبنية على هذه المكونات الثلاثة، يمثل الشرط الحاسم في تحقيق تكامله النفسي، ومن ثم الضمان الذي سيقفه في المستقبل من أي لون من ألوان الاضطراب.

\* الثاني يرتبط بتحقيق التكيف الاجتماعي للطفل من خلال تدريبه على قواعد التواصل مع الآخر، وتوعيته بحريته وحدوده، وبالتمييز بين الحقوق والواجبات، وبين الممكنات والممنوعات. وقد ثبت أن علاقة الطفل وتفاعله مع الآخرين وبالخصوص مع الأيوين، يمثل من الناحية النفسية الاجتماعية حجز الزاوية في سيرورة اكتساب قواعد الفعل والسلوك وتعلم تقنيات التواصل والتكيف (Bandura, 1973؛ إسماعيل، 1986). ويمكن التمييز بهذا الخصوص بين ثلاث صيغ نوعية لتدخل الوالدين في اتجاه تحقيق اندماج الطفل وتكيفه اجتماعياً:

- التضبيب الذاتي، بمعنى تصيير الطفل قادراً على تحديد غايات محددة.

- التلاؤم مع الأعراف والقوانين الاجتماعية.

- التعاون مع الآخرين من خلال التفاعل والتواصل ونسج علاقات حميمة.

وإن هذه الصيغ الثلاث التي تستدعي على مستوى تحقيقها كغايات اجتماعية اتباع أربعة أشكال من الرعاية والإشراف هي: المراقبة/ التحفيز/ التخليق/ العلاقة العاطفية، يمكن ملاحظتها في أربعة قطاعات أساسية لتربية الطفل، وتحقيق اندماجه الاجتماعي (Pourtois, 1989؛ Allès-Jardel, 1996):

أولها: قطاع تعلم المعارف التقنية المرتبطة أساساً بمهارات القراءة والكتابة والرسم وغيرها.

ثانيها: قطاع تعلم القيم الأخلاقية وقواعد تدبير الحياة الاجتماعية كمفاهيم العدل والصدق والاستقامة والنزاهة والمسموح والممنوع...إلخ.

ثالثها: قطاع تعلم عادات التفاعل وتقنيات التواصل وقواعد الحوار، ثم مهارة الحياة.

رابعها: قطاع تعلم أساليب تمثّل الذات، وبناء الهوية الاجتماعية، وخاصة على مستوى صورة الجسد واللباس.

أما من حيث المحددات التي تحكم الممارسة التربوية للوالدين تجاه الطفل فيمكن إجمالها في أربعة أصناف:

\* محددات نفسية تشمل خبرات الوالدين وتجاربهم وعلاقاتهم العاطفية واتجاهاتهم النفسية وتمثلاتهم حول مستقبل الطفل ومراحل نموه، ووسائل إشباع رغباته والاستجابة لحاجاته.

\* محددات اجتماعية تشمل مكونات المحيط الأسري للطفل (عدد الأطفال، جنسهم، أعمارهم، القيم والعلاقات، توزيع الأدوار والمسؤوليات).

\* محددات اقتصادية تشمل طبيعة المستويات المادية للوالدين ودرجات تأثيرها في أساليب تعاملهما مع الطفل؛ بحيث تتخذ هذه الأساليب أشكالاً مرنة كلما كانت تلك المستويات مرتفعة.

\* محددات ثقافية تتعلق بمستوى الوالدين التعليمي الذي يؤثر في أساليب تعاملهما، بحيث كلما كان هذا المستوى مرتفعاً كان الوالدان أكثر ميلاً للمرونة والتسامح مع الطفل.

### 3. الأساليب التربوية للوالدين؛

الأکید أن الممارسات التربوية للوالدين لا تنبني على أسلوب واحد في التعامل مع الطفل، بل إن أغلب الدراسات النفسية الغربية والعربية تجمع على وجود أشكال متعددة من الأساليب التربوية التي فضلنا حصرها في ثلاثة نماذج أساسية (Lautrey, 1989)؛ (Allès-jardel, 1989؛ أحرشواو، 2009؛ عبد الفتاح، 1992؛ الطيب، 1990؛ حسن، 1970):

نموذج الممارسة الضعيفة: المتمثل في الأسلوب التربوي الذي لا يحكمه أي سلوك قار أو مبدأ ثابت يوجه تصرفات الطفل وأفعاله؛ بحيث إن لهذا الأخير كامل الحرية ليفعل ما يشاء ومتى يشاء بلا حسيب ولا رقيب. والحقيقة أن هذا النموذج الذي يعتبر الأكثر ضرراً على نمو الطفل وتكيفه وتوازنه النفسي، عادة ما يتميز إما بنوع من التذبذب والتناقض في المواقف، وإما بنوع من المزاجية المتقلبة المفعمة بالإهمال واللامبالاة وغياب الدعم. فالطفل الذي ينشأ في ظل ممارسة تربوية تهمله ولا تعيره أي اهتمام على مستوى الإشباع البيولوجي والدفع العاطفي والتأطير التربوي، لابد وأن يفتقر إلى مقومات الشخصية السوية القادرة على التكيف السليم، وعلى مواجهة مشاكل الحياة.

نموذج الممارسة الصارمة: الكامن في الأسلوب التربوي الذي يتميز بمستوى عال من النظام والصرامة وبمستوى ضعيف من الحب والحوار؛ حيث على الطفل أن يمثل لأوامر الوالدين وتعليماتهم ولا يحق له أن يناقشها أو يزيغ عنها. والحقيقة أن هذا النموذج عادة ما يعكس الممارسات التربوية المتميزة إما بالسلطة الزائدة وكل ما يواكب ذلك من أساليب السيطرة والحرمان والقسوة والتقييد، وإما بالرعاية المفرطة وكل ما يرافق ذلك من أساليب الحماية الزائدة والمراقبة الصارمة. والواقع أن الطفل الذي يخضع لنموذج بهذه المواصفات لابد أن يتميز بشخصية ضعيفة من أبرز سماتها الشعور بالدونية وفقدان الثقة والفشل في التكيف والتحصيل ومواجهة مشاكل الحياة.

نموذج الممارسة المرنة: المتمثل في الأسلوب التربوي الذي يتميز بمستوى عالٍ من النظام والتواصل والحميمية والمراقبة المعقنة، فالآباء يفضلون هنا أسلوب الحوار والإقناع والتفاهم لتوجيه الطفل وفق قواعد وسلوكيات ثابتة، ولكن غير جامدة؛ بحيث يمكنها أن تتكيف بحسب الظروف والمواقف لتترك للطفل هامشاً من حرية التصرف مع قبول بعض الأخطاء التي قد يقع فيها.

الحقيقة أن هذا النموذج هو الذي يعكس مواصفات الممارسة التربوية الوالدية الأكثر ملاءمة التي توفر الإشباع المنتظم لحاجات الطفل المتمثلة في: المرونة والحرية والتقبل والتسامح والعدل والحوار والالتزام والعقلانية والتأطير، ثم الدفاء الوالدي. فالطفل الذي يتربّع في كنف هذه الممارسة التربوية المرنة، عادة ما يتميز بسمات الشخصية السوية المتمثلة أساساً في الاستقلال الذاتي، والثقة في النفس، وتحمل المسؤولية، والشعور بالأمن والكفاءة في التحصيل، وفي التواصل والمهارة في حل المشكلات ومواجهة مواقف الحياة.

#### 4. بعض مشاكل التربية الوالدية:

فضلاً عن مشاكل الفقر والتخلف والجهل، وتقلص دور الأسرة التي تترجم التحديات الكبرى التي تواجهها الممارسات التربوية الوالدية في أغلب المجتمعات المتخلفة والنامية، توجد جملة من القصورات والنواقص التي تؤثر سلباً في تلك الممارسات وفي مقدمتها (أحرشواو، 2009؛ Pourtois، 1989؛ Allès-jardel، 1997):

\* الافتقار إلى المرجعية البيكولوجية التي تشكل الدعامة القوية لكل تربية والدية. فعلى أساس أن النظرية التي يحملها الوالدان عن بيكولوجية أبنائهم، هي المرجع المحدد لأساليبها التربوية، فإن طبيعة هذه الأساليب قد تتوزع بين الصحيح والخاطئ تبعاً لنوعية هذه النظرية. فكلما كانت مبنية على معطيات ومعارف بيكولوجية وتربوية صحيحة، أدت بصاحبها إلى أن يسلك في تعامله مع أطفاله أساليب تربوية تتميز بالمرونة والعقلانية والدفاء العاطفي والتأطير الجيد.

\* الافتقار إلى بيداغوجيا والدية ومن ثم سيادة الممارسات التربوية المتذبذبة إما بين التسلط والتساهل، وإما بين الإهمال والحماية، وإما بين الرفض والقبول.

\* الافتقار إلى إستراتيجية تربوية مضبوطة الأهداف ومحكمة الإجراءات، ومن ثم الاعتماد على ممارسات تربوية تفتقر إلى:

- الإشراف والتوجيه اللازمين، وذلك بفعل غياب الوالدين عن البيت نتيجة العمل أو بفعل إهمالهما للطفل على الرغم من حضورهما الصوري.

- محدودية الكفاءة واختزالها عند كثير من الآباء في الكفاءة العاطفية، ومن ثم إهمال باقي المواصفات الأخرى لهذه الكفاءة وبالخصوص: الجاهزية والحضور، الصبر والمسؤولية، حُسن الإنصات والاستجابة، التكوين والتأطير، التوجيه والإرشاد.

- ترجيح كفة التربية الوجدانية على التربية المعرفية، ومن ثم اختزال وظيفة الوالدين في التربية الوجدانية والأخلاقية والسلوكية مع الإهمال التام للتربية المعرفية والتعليمية.

وإذا جاز لنا أن نقدم بعض مقترحات الحلول لتجاوز مثل هذه المشكلات والقصورات، فيمكن إجمالها في ثلاثة عناصر:

أولها: يتعلق بتوفير التكافؤ في فرص وإمكانيات توعية الآباء بوظيفتهم الوالدية، ومن ثم اعتماد برامج لتكوينهم في مجال الكفاءة الوالدية ودورها التربوي.

ثانيها: يرتبط بشعور الآباء بمسؤولياتهم التربوية الجديدة، وبالخصوص على صعيد الأهلية الوالدية التي تمكنهم من التعامل التربوي الإيجابي والفعال مع الطفل.

ثالثها: يتجلى في اعتماد إستراتيجيات تربوية هادفة، قوامها تكوين وتأهيل أطفال اليوم ليستوعبوا أدوارهم التربوية كأباء في المستقبل القريب.

### خلاصة:

كانت تلك إذن هي أهم القضايا التي حاولنا من خلال استحضار بعض مضامينها الاقتراب بشكل أكبر من طبيعة الممارسة التربوية الوالدية، ومن فحوى النظرية البيكولوجية التي تحكمها وتوجهها. وهي النظرية التي نقترح أن تنصب عليها جهود الباحثين والفاعلين في ميدان تربية الطفولة، لأنه في دراسة واستجلاء مكونات ومضامين تلك النظرية، تكمن الحلول الفعلية لتجاوز كثير من مشكلات ومعوقات ما يسمى عندنا بالتربية الوالدية.

## المراجع

### المراجع العربية:

- إسماعيل، محمد عماد الدين (1974). كيف نربي أطفالنا، دار النهضة العربية.
- إسماعيل، محمد عماد الدين (1986). الأطفال مرآة المجتمع، عالم المعرفة.
- الطيب، أموراق (1990). أسلوب معاملة الطفل بين الأسرة المدرسة وعلاقته بتوافقه الدراسي (أطروحة دبلوم الدراسات العليا، غير منشورة)، فاس: كلية الآداب.
- أحرشواو، الغالي (1988). بعض ملامح المنظومة التربوية العربية الحديثة، مجلة علوم التربية، 11-12.
- أحرشواو، الغالي (2009). الطفل بين الأسرة والمدرسة، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- حسن، محمد علي (1970). علاقة الوالدين بالطفل وأثرها في جناح الأحداث، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- عبد الفتاح، يوسف (1992). الرعاية الوالدية كما يدركها الأبناء ومفهوم الذات لديهم، مجلة علم النفس، القاهرة، 13، 146 - 164.

### المراجع الأجنبية:

- Allès-Jardel, M. (1996). Déterminants familiaux des compétences communicatives et sociales du jeune enfant à l'école, *Apprentissage et socialisation*, Numéro spécial sur la famille, Press Inter Univ., Vol 17, N° 1- 2, (9-20).
- Allès-Jardel, M. (1997). *Attitudes éducatives parentales et développement socio-personnel du jeune enfant*, Toulouse: E.U.S.
- Allès-Jardel, M. (1989). Environnement familial, pratiques éducatives parentales, *Pratiques psychologique*, 2, (55-72).
- Bandura, A. (1973). *Asocial learning and personality development*, New York, Holt, Rinehart and Winston.
- Lautrey, J. (1989). *Classe sociales, milieu familial, intelligence*, Paris: P.U.F.
- Pourtois, J. P. (1989). L'éducation familiale, Note de synthèse, *Revue française de pédagogie*, 86, (69-101).